شموع الحرية

خرج من بيته مذهولاً، منكفئاً على وجهه، وقدِ اسودَّتِ الدُّنيا في عينيه ، فكان كجوال الإسمنت لا يعي ما حوله .. الجوُّ متجهِّمٌ كوجه أبيه حين كان يقترف خطأً جسيماً،وآن أوان العقاب، إنَّه ينذر بشيءٍ ما ..كارثةٍ .. مُصيبةٍ .. تنضاف إلى الكوارث الَّتِي تلاحقه في الفترة الأخيرة .. هل أرعد الجوُّ؟ أم هو غضبه الهادر في أعماقه؟ لا يدري !! والَّذي يعلمه علم اليقين أنَّ الحياة لم يعد لها أدنى طعمٍ من دون (هيفاء) ..

السَّماء تبصق ما في جوفها، ويشعر بأحشاء السَّماء تنصبُّ حِمماً قاتلةً على رأسه، بل هي دماءٌ سوداءُ ..ما بالها أهي تشاركه آلامه أم تنضمُّ إلى صفِّ الأعداء ضدَّه؟!.. هرول إلى شجرة غارٍ يحتمي تحتها، ولعلَّها تعصمه، سُحقاً لها ما إن شعرتْ به تحت أفيائها، شرعتْ أغصانها تنزاح عنه للوابل المنهمر .. وكلَّما تزحزح إلى ظلِّ الأغصـان تباعدتْ من جديدٍ، وهي تُصفِّر مع الرِّياح العاوية، وكأنَّها بدورها تكره وجوده فِي هذه الحياة الشَّقيَّة .. وتمتم لنفسه :

" مَرحى .. مرحى ..كلُّ شيءٍ يا مروان يودُّ لو يغتالك، السَّماء ترميك لتبلعك، والمطر يغمرك ليدفنك، حتَّى الغار أهزوجة الحبِّ والسَّلام ينفر منك كأنَّك السُّمُّ الزُّعاف ،قل لي بربِّك : لِمَ تتمسَّك بأهداب الحياة وهي تدير لك قفاها، لتلفظك نفايةً ؟! " . وانبعثت طاقةٌ حيويَّةٌ في أوصاله ، لربَّما هي " حلاوة الرُّوح " كما قال جدُّه يوماً ، وحين استجمع شتات قوَّته الواهنة أصلاً لينطلق إلى مأوىً آمنٍ ، أحسَّ بالرِّيح ترفسه على وجهه رفسات مُهرٍ جموحٍ يأبى الانصياع.. وشعر بها مؤلمةً.. أيُّ جنونٍ حدَاك لتخرج في عنفوان الغضب الأحمر ؟ " آهٍ يا هيفاء! أنتِ السَّبب، أتُراكِ الآن تلبسين ثوبك الأبيض، وعلى ثغرك الابتسامـة العذبة إيَّاها ، تنتظرين وصولي؟ ". وانتشرتْ في جسده قوَّةٌ وهميَّةٌ عندما تذكَّرها، فركض كالمحموم إلى جدارٍ قديمٍ كـانا يلتقيان عنده مراراً خلسةً عنِ الأعين، وشاع في جسده دفءٌ تفجَّر من قاع وجدانـه الأليم، وقد امتنَّ للجدار لأنَّه قدَّم له حمايةً محدودةً عجزت الأشياء الأخرى عن تقديمها لـه .. وتربَّع القرفصـاء ، يتأمَّل بذعرٍ حقيقيٍّ أوجاع الطَّبيعة وهي تئنُّ بعنفٍ لا عهد لـه به قبـلاً ، واستكان ثانيةً لِحُـمَّى خياله الَّـذي لم يفترَّ يومـاً ، وغرق في سيل أحاسيسه.. هيفاء الحسناء ، الشَّابة الغضَّة ، والَّتي لو رآها مجنون ليلى لَجُنَّ ألف مرَّةٍ بعدها ، ما أروع إخلاصها !! فقد وهبتْهُ قلبها وروحها وعواطفها .. كانت تقول له : " - بك يا مروان ذقْتُ لذَّة العيشِ .. "

ثمَّ تنطلق نحلةً طنَّانةً على زهر الْجلنـار ، وشالها القرمزيُّ يُهفهف على كتفيها تومض السَّماء فجأةً ، فيجفل لا وجلاً ، بل لأنَّه توهَّم أنَّه رأى طيفها تحت شجرة الغار، ففرك عينيه ، ورفعهما لأعلى فأغرقهما الماء

المنصبُّ من أنفٍ أدماه الزُّكام ..

- أنت إنسانٌ ثائرٌ على حياتك ، وعلى الآخرين ، وسيأتي يومٌ تثور عليَّ ..
- لئن ثرْتُ ، فسأثور لأجل أهدابك السَّوداء كملاءة أُمِّي رحمها اللهُ ..
- أعشق فيك ثورتك وإصرارك العجيب ..
- نحن قومٌ لا يعرف اليأس درباً من دروبه ، هذا ما يقوله أشباه الخنازير عنَّا ..
- يداً بيدٍ سنوقد شموع حريَّتنا !!

ويمسك بيدها الغضَّة البلُّوريَّة في يده الخشنة ، ويضغط برفقٍ كيلا يحطِّمها ، ويقول :

- حينها سنرسم عالمنا الطُّفوليَّ الَّذي لم نعشْه ، ونلوِّنه معاً بألوان الحبِّ الدَّافئة ..
- وستكون البنادق محراثاً لأرضنا ، وجماجم الأوغاد سياجاً ، وخوذاتهم مرتعاً لدجاجاتنا ..

هيفاء كانت برتقالةً ناضجةً من بيَّارات ليموننا في أرضنا الطِّيبة المعطاء كأُمَّهاتنا الحنونات، اللَّواتي يهبْن فلذات أكبادهنَّ ليموناً لتراب بلادنا الطَّاهرة ..ولكنَّ هيفاء لم تعد هيفاء، بل أضحتْ سراباً ذاوياً ،ونجمةً خابيةً في ليلةٍ شتويَّةٍ كهذه اللَّيلة .. منذ أسبوعٍ التقيا، كانت تمشي على غير هُدىً مضطَّربةً، لأنَّه حين انحطَّ أمامها كاللَّيث – كعادته معها دائماً – ذُعِرتْ ..

- ماذا دهاك يا هيفاء ؟؟..
- أبي وأخي مُحمَّد ....

واختنق صوتها بالعبرات ، وفاض على خدَّيها ينبوعان صغيران ، فقال مُتوجِّساً :

- ما بهما تكلَّمِي ؟
- خرجا في صبيحة أمسِ ، ولم يعودا حتَّى الآن ..
- هل أسرهما الأوغاد ؟
- لا أدري ..
- سيعودان كما في كلِّ مرَّةٍ ..
- قلبي يُحدِّثني أنَّهما لن يرجعا يا مروان ..

وصدق إحساسها ، فقد حملت الأخبار القاسية - وما أكثرها – أنَّهما صارا جَدْوَلَيْنِ انضمَّا إلى نهر الشَّهادة الخالد ، ليسقيا التُّراب الطَّاهر بدمائهما ..

وكانت أُمُّ هيفاء - ككلِّ أُمٍّ فلسطينية – على قدَر المصاب الجلل ، رفضتْ أن تُقيم مأتماً للعزاء في دارها ، بل ظلَّت ابتسامتها الهادئة لا تُفارق ثغرها، وتُردِّد دائماً :

- الخَنْساءُ وخَوْلَةُ جدَّتايَ ، وفلسطين أُمِّي ، وفرحي بهما في الجنَّةِ ، وقد علَّمني أبو محمَّد أن لا أبكي من أجل وطني ..

لكنَّ هيفاء ذوتْ ، كغصن اللَّيمون لم يُسْقَ ماءً ، وحزنتْ كثيراً ، ولم تعد تبتسم، وانتفختْ عيناها الدَّعجاوان ، ولم يستطع أن يُسرِّيَ عنها .. أرعدتِ السَّماء، فأوجف هُنيهةً ، ثمَّ عاد إلى أحلامه .. ففي ليلة الأمسِ، وبينما هو ساهرٌ يفكِّر في هيفاء، وكيف يثأر لها؟ أتاه الخبر الصَّاعقة، لقد قام الأنذال بقصفٍ صاروخيٍّ لمنزل أبي محمَّد غدراً كطبعهم الجبان، وقد زعموا فيما بعد أنَّهم قصفوه باعتباره موقعاً عسكرياً "لإرهابيين" !

وخفَّ إلى هناك ، فطالعه خرابٌ ودُخانٌ وحجارةٌ سوداء تفوح منها رائحة الاحتراق ، وجُنَّ جنونه ، وأقبل كالمسعور يساعد النَّاس في البحث عن أحياءٍ ، وما وجد إلاَّ شالاً قُرمُزيَّاً مُمزَّقاً ومُلطَّخاً بالتُّراب المنهار ، وأعلنوا بأسفٍ : هناك جثَّتان متفحِّمتان ، فجمد طويلاً ، ثمَّ صاح بملءِ فمه المليء بالغبار : " لاااااااااا ..."

وظلَّ طيلة النَّهار هائماً في بساتين اللَّيمون ، حيث كانا يلتقيان ، يضحك تارةً ، ويعبس أُخرى ، ويصيح غاضباً ثالثةً .. حتَّى احتواه المساء بالظُّلمات والرَّعد ..

- ما طعم الحياة دونك يا هيفاء، كنتِ لي أملاً، ثمَّ داس عليه الطغاة، الشهادة .. تناديني، وطني .. يناديني ، كلاَّ لن أستسلم لضعفي ..

وهبَّ كالمارد، يَمشي، يسرع، يهرول، لا يبالي بالبلل يغمره، ولا يشعر بالبرد، فدماؤه تغلي ثورةً تجفِّف الكون، وجاهد لينتزع قدميه من الأوحال، وسار إلى مصيره.

- إنِّي آتٍ إليك يا موتي، على فرسي البِكْرِ، فلم أعد أهابك ..

شاع في (جنين) فجر اليوم الباكر ، أنَّ شابَّاً فدائيَّاً فجَّر دبَّابةً صهيونيَّةً، كان أفرادها الهالكون في أعماقها يطلبون الدِّفْء بسبب أقسى ليلةٍ باردةٍ تشهدها المنطقة ..

والَّذي لم يستطع أحدٌ معرفته لموت الجميع، هو أنَّ عناصر الدَّبَّابة تفاجؤوا برأسِ مبلَّلةٍ وشعرٍ منكوشٍ ، يفتح عليهم غطاء الدَّبَّابة ، وقبل أن يتحرَّك أحدهم لسلاحه رمى قنبلةً يدوية . وقيل : إنَّ السَّماء كفَّت عن عويلها ووابلها دقيقةً، كانت كافيةً ليسمع الكون صوت الانفجار العذب، وبصوتٍ هادئٍ يقول :

- يداً بيدٍ ، سوف نستعيد كرامتنا، وسنوقد شموع حريِّتنا ....

وهكذا كان .....

(تـمـت)